

المشكلات

٥ - اللغة العربية

للأستاذ محمد عرفة

لماذا أخفقنا في تعليمها ؟ — كيف تعلمها ؟

ومن غريب الأمر أن الطريق الذي أشرنا بسلوكة ، والذي أبان العلم أنه لا طريق إلى تعلم اللغات سواء ، هو الطريق الذي هبت إليه الفطرة وسلكته في تعليم الولدان لغات آبائهم ، وتعليم الأجيال لغة أمهم ، فالفطرة اصطنعت في تعليم اللغات طريق الحفظ والتكرار ، والرائة والاعتیاد

ينشأ الطفل فيسمع أبويه وأهليه يشكلمون بمواضع خاصة فيحفظها وتكرر على سمعه ، ويمتادها لسانه فتصير ملكة ، وبذلك يحذف لغة قومه

كان الفطرة قد علمت أن اللغة في الإنسان ملكة ، والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار فاستعملت ذلك في تعليم أم الأرض لغاتها ، ولم تخطئ مرة واحدة فتلجأ إلى طريق القواعد والقوانين لأنها لا تكتسب الملكات

أما نحن فغفلنا ذلك ، وأخذنا نعلم اللغة بالقواعد والقوانين ، ولم تلجأ إلى تعليمها بالحفظ والتكرار ، فكانت الفطرة أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ ، وأثقب فكراً ، وأسد نظراً ، وكنا أقرب إلى الخطأ ، وأبعد عن الصواب ، وأعظم خرقاً . وكانت الفطرة تعلم اللغة أثناء المعاملات اليومية من لعب وقضاء حاج ، وبيع وشراء ؛ أما نحن فقد أحطناها بالقوانين التي يفنى العمر ولا تفنى ؛ فكانت مقصدية أعظم الاقتصاد ، وكنا مسرفين أشد الإسراف . كانت الفطرة تعلمها بالتدرج من الأسهل إلى الأصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، مراعية حال التعلم ، فتعطيه ما يناسبه ولا يجافي عقله . أما نحن فلم نراع ذلك بل تمعدنا مضادته ، فعلمنا القواعد التي هي فلسفة اللغة ، تعلم بعد تعلمها ، وصربتها في الوجود متأخرة عنها ، فلم تظهر إلا بعد ظهور اللغة بأزمان . أقول علمنا القواعد قبل تعلم اللغة وجعلناها وسيلة إلى

تعليمها ، ولم نراع حال التعلم فجعلنا بأطفال الأقسام الابتدائية والتعليم الأولى ، وأخذنا نعلمهم القواعد ، ونعطيهم من العلم ما ينبو عن أذهانهم ؛ فكانت جارية على مقتضى الحكمة ، وكنا جارين على غير مقتضاها ، أو على مقتضى شيء آخر ، وكانت ميسرة كل التيسير ، وكنا معسرين كل التمسير

وكانت تعلمها أثناء سرد الحوادث اليومية ، وأخبار الجيران ، والأهل والخلان ، والمحادثات السارة والأخبار الممتعة ، وتاريخ الناس وملحهم ، وفي أثناء الاغاني والمدائح والمراثي . وكنا نعلمها في قواعد جافة خالية من كل ذلك ، فكانت تعلمها مع التمتع والمرة . وكنا نعلمها مع الضيق والحرج . ولما راعت ذلك كله كانت ناجحة في تعليمها كل النجاح ، ولما أهملنا ذلك كله كنا غفقيين كل الإخفاق

أرأني فيما سبق قد أطلت المسافة في الاستدلال ، وذكرت في البين أن اللغة ملكة ، وأن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار ، وكنت أستطيع أن أختصر الطريق ، وأقول لننظر إلى الفطرة كيف تعلم اللغة ، ولنحاكها فيما تفعل ، ولنعمل كما تفعل

وإذا نظرنا هذا النظر وجدناها تعلم أبناءنا اللغة العامية بالتكرار والمحادث ، وكذلك كانت تعلم أطفال العرب لغة آبائهم . كانوا يسمعون في طفولتهم من آبائهم وعخالطهم مفردات اللغة وأساليبها ، والبالغ المأثور من بيانها ، ويتكرر ذلك على أسماعهم ، فيحس كونه ويقلدونه ويتكلمون على نهجه ، فيكتسبون الملكة في اللغة بالسماع والتكرار والحفظ ؛ فإذا الطفل الناشئ ولسانه البادئ جار على هذه اللغة لا يخطئ ولا يشذ ، ولو حاول جهده أن يحيد عن الصواب لاستمعى ذلك على لسانه ، ولوجد في ذلك مشقة وعنتا

إن محاكاة الفطرة في أعمالها داعية إلى النجاح والتوفيق ، وكلما كان المرء أقرب إليها كان أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ ، ويكون خطؤه بقدر بعده عنها ، ومجاورة لقوانينها

ومن سوء حظ المعلمين أن ما في المدارس المصرية مما له يتعلق بالطريقة الطبيعية قد أهمل ولم يدر به ، وهو فيها صورة لا معنى ، وشكل لا حقيقة ؛ ففي المدارس المصرية حفظ ومطالعة ، ولكن التلاميذ يهملون ذلك التمدد القليل الذي قرضته عليهم المدارس

كل ما في الوجود يشهد لي أن اللغة إنما تكتسب بالحفظ والتكرار وأن القواعد لا تنفي في اكتساب ملكة اللغة فتبلى لعلك جلست إلى بعض المثليين واستعنت إلى حديثه فرأيتهم يتكلم بالعربية لا يكاد يخطئ : وينحدر كالسيل ، ويهدر كالرعد ولعلك جلست إلى بطل من أبطال اللغة العربية يعرف

قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تكاد تخفى عليه منها خافية ، فرأيتهم يتكلم بالعامية لا يكاد يقيم جملة ، ولا يستطيع أن يلين لسانه بالعربية ، فمجبت كيف يملك الأول هذا القدر من العربية مع جهله ، وكيف يقصر عنه الثاني مع علمه

أندري لم هذا ؟ إن الأول زاول اللغة العربية عملاً ، وحفظ أدواره في الروايات ، وألقاها ومرن على ذلك فاكسب ملكتها ، فإن تكلم بعد صدر عن الملكة فأجاد ؛ أما الثاني فلم قواعد النحو والصرف والبلاغة ، ولم يزاول اللغة حفظاً وعملاً ، فلم يكتسب ملكتها فكان هذا القصور المريب

أجلست مع بعض العامة الذين يكثر من قراءة الجرائد والروايات فرأيتهم يقيم لسانه بالعربية أكثر من ذلك النحو الذي جعل همه في القواعد والقوانين

ولعلك رأيت بعض من لا يعرفون علم العروض والقافية ، ولا يعرفون البحور وأوزانها ، ولا الخن والطنى ، إذا سمع بيتاً مكسوراً أدرك عيبه بمجرد سماعه ، وإذا سمع بيتاً صحيحاً أدرك صحته كذلك ؛ ولعلك رأيت بعض من يعرفون هذه العلوم لا يهتمون لعيب البيت أو صحته إلا إذا أخذوا يتعرفون من أى بحر هو ويجرونه على أوزانه . إن ذلك لأن الأول تربى عنده مقياس ذهني لأوزان الشعر من كثرة قراءته وحفظه ، فإذا سمع شعراً اختل من هذه المقاييس أدرك ذلك بذوقه ، والآخر لم ترب عنده هذه المقاييس بل شغل بقواعد الشعر عن حفظه وقراءته والقواعد لا تربى الملكة

إن كثيراً من علماء العروض لو حاولوا نظم بيت من الشعر أهجزم ؛ وإن كثيراً ممن لا يعرفون هذا العلم يأتى لهم الشعر طبعاً متقاداً — والسر ما قلناه وكررناه من أمر الملكة والتكرار

المصرية من المحفوظات ، ولا يحفظون إلا النزر القليل ليقولوه أمام لجنة الامتحان الشفوى . وفيها مطالعة ، ولكن يمر العام كله وهم لم يطللموا إلا صفحات معدودة ، وفي الكتب المقررة شواهد على النحو والصرف والبلاغة ، ولكن التلاميذ لا يحفظون شاهداً ، ولا يستطيعون مثلاً

وضمت يدي على خمسة تلاميذ اتفاقاً دون اختيار ، وكانوا من تلاميذ الثقافة ، وكان علم البيان مقررأ عليهم وفيه كثير من الأمثلة والشواهد ، وسألهم واحداً واحداً عما حفظوه من شواهد البيان ، فلم يكن منهم من يحفظ بيتاً واحداً ، ومن الحزن أن المتحنيين لا يقيمون وزناً لذلك ، وأن المدرسين لا يقيمون له وزناً أيضاً ، فلا هؤلاء يحتمون عليهم حفظ الشواهد ، ولا أولئك يرون المقصر في حفظها مقصراً في الامتحان

وهذا إهمال عظيم في الحفظ والتكرار ، وهو وإن كان محزناً فإن لهم العذر كل العذر فيه ، لأنه ثبت في أذهان الجميع معلمين ومعلمين أن الممول عليه إنما هو القاعدة ، فإذا فهمت وحفظت فما عداها من حفظ الشاهد والمثل فضل ، ولا يملكون أن هذا الفضل هو الذى إذا عنى بحفظه وتكراره رسم صورة ذهنية ، يكتب الناشئ على مثالها ، وينسج على منوالها

وقد علمتني التجربة أن ما يؤخذ من المحفوظات في المدارس لا يفتى التلاميذ شيئاً ، فمن الواجب أن يكلف التلاميذ أن يكفوا على بعض دواوين الأدب ، فيقرؤوها ، أو يختاروا منها ، ويجمعوا ما يختارون في كراسة ويحفظوه ويفهموا معناه ، وتكون هذه الكراسة بيد التلميذ عند الامتحان شاهدة على جده وعمله ، فيقدمها للمتحن فيرى أمى كافية أم غير كافية ، ثم يمتحنه فيها من أولها ومن وسطها ومن آخرها ليعلم هل حفظ ما اختار

وقد علمتني التجربة أيضاً أن ما يؤخذ من المطالعة في العام الدراسي أمام المدرس لا يفتى عن التلاميذ شيئاً ، فمن الواجب أن يكلفوا بكتب يطلعونها أثناء العام الدراسي ويكتبون آراءهم فيها ويلتصون محتوياتها ، وكذلك في المطلة ، ويكون لهذا وذلك دخل في تقدير الدرجات